العدد (1899) السنة الثامنة - السبت (4) ايلول 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

رمضان النجف شهر المجالس والأمسيات

تختلف مدينة النجف عن باقي المدن العراقية حيث يبدو فيها شهر رمضان في النهار كأنها مدينة خالية من الناس تغلق المحال التجارية وتقل فيها حركة المركبات في الشوارع، بينما يبدأ نشاط المدينة بعد الإفطار حيث تزدحم الشوارع والأزقة الضيقة بالناس وكأن الحياة عادت إلى المدينة من جديد. البعض من الأهالي يحيون ليالي رمضان حتى صلاة الفجر في مرقد الإمام علي بن أبي طالب أو بجواره. وفي شهر رمضان تكتر المجالس الأدبية والتزاور بين العوائل النجفية، بينما تكتظ الأسواق بالمتبضعين الذين يقبلون على شراء الحلويات والمرطبات والعصائر التي بدت وكأنها مرتبطة بشهر رمضان. والنجف من المدن المقدسة في العراق، وتحتضن مرقد الإمام علي رابع الخلفاء الراشدين، بالإضافة إلى وجود المرجعية الدينية فيها، يتوافد عليها ملايين الزائرين سنويا من داخل وخارج العراق.

النجف/ واع

وتقول أم حيدر (٤٧ سنة) لـ" واع": «إن أهالي النجف يستعدون لشهر رمضان قبل عدة أيام، حيث نقوم بالتسوق وشراء مواد يكثر أكلها في شهر رمضان». وتضيف: «لدينا عادات وتقاليد لا بد من عملها في أول يوم من رمضان، وهي رش ماء الورد على رؤوس العائلة بعد الإفطار، وتوزيع بعض الأكلات على الجيران، وقراءة القرآن قبل أذان المغرب، والحرص على حضور جميع العائلة على الإفطار، وغيرها من التقاليد التي لا يمكننا العزوف عنها». مؤكدة: «رغم صعوبة الظروف التي يعيشها العراق فإن التزاور بين الأقرباء والأصدقاء هو أحد طقوسنا ولا يمكن التخلي عنه، بالإضافة إلى زيارة مرقد الإمام علي بعد الإفطار، حيث نقضي وقتا في قراءة القرآن الكريم والصلاة».

أما حسن حميد (٧١ سنة) فأكد أن «لدى النجفيين أيضا عادات وممارسات يستخدمها المواطنون في شهر رمضان، منها أن يبدأ صاحب الطبل والمزمار حيث يقرع بها رؤوس النائمين قبل وقت السحور بساعة، كما يقوم أطفال الأحياء بالوقوف أمام المنازل ويرددون: (ماجينه يا ماجينه، الله يخلي فلان). عندها يخرج صاحب المنزل ويوزع عليهم بعض الحلوى والمشروبات الغازية»، مضيفا: «كما يقوم الشباب بمسابقات بين الأحياء في لعبة المحيبس، وهي مشهورة لدى العراقيين، وتبدأ منذ أول يوم من شهر رمضان إلى نهايته)).

أما الباحث التاريخي فراس الكرباسي فيقول حول حركة النجفيين في شهر رمضان: «تبدأ الحركة بعد تناول طعام الإفطار في اتجاهات كثيرة، وفي مقدمتها زيارة مرقد الإمام علي، أما الاتجاه الآخر فهو حضور المجالس، ولمجالس النجف ميزة خاصة، وبخاصة مجالس العلماء، إذ تثار فيها المسائل الفقهية والنكات الأدبية والتقفية الشعرية، أما مجالس الوجهاء فيتم فيها تداول الحوادث التاريخية والمآثر القديمة، وهي لا تخلو من الأدب وغيره، وكثيرا ما يتم التلاقح بين مجالس العلماء والوجهاء من تبادل الزيارات)).

وأشار إلى أن «النجف في شهر رمضان تنام في النهار وتنتعش في الليل حتى ساعات الفجر، فتصبح فيها الحركة مستمرة سواء على صعيد العمل أو على صعيد العبادة)).

وأضاف الكرباسي أن «هنالك عادات مميزة في شهر رمضان، كظاهرة الولائم العامة، وبخاصة دعوة الفقراء إلى الإفطار في ليالي الجَمع والمناسبات الدينية، كما لا تقام الفواتح على الموتى في النهار، احتراما للشهر الفضيل وقدسيته، فإن الفواتح تقام جميعها بعد الإفطار، وقد خصت النجف بهذا الجانب)).

وبخصوص المجالس الأدبية في رمضان يقول الكرباسي: «هناك بعض المنازل تعقد فيها الأمسيات الثقافية والأدبية الجميلة، حيث تلقى فيها المحاضرات المتنوعة في التراث والثقافة والتاريخ والاجتماع والسياسة، يحاضر فيها أشخاص أكفاء، وكل في مجال اختصاصه، وتجري المناقشات والمداخلات بعد انتهاء المحاضر من محاضرته ، فكل يدلي بدلوه إلى ساعات متأخرة من الليل)).

مضيفا: «تشتهر النجف بظاهرة الزيارات المتبادلة بين الناس في شهر رمضان، وهناك منازل لوجهاء القوم والمسؤولين، تفتح أبوابها لتستقبل الوافدين إليها من أبناء المحافظة، يتسامرون في ما بينهم، ويتناولون الفواكه والحلويات ويحتسون الشاي والقهوة بعد أن يفرغ الخطيب من قراءة العزاء الحسيني ويتخللها الوعظ والإرشاد)).

إلى ذلك قال وهاب شريف، شاعر وأديب، حول أمسيات أهالي النجف «غالبا ما تكون الأمسيات عن الأدب والشعر ومؤسسات المجتمع المدني ودورها في بناء العراق الجديد، إضافة إلى مناقشة أمور كثيرة ومنها السياسية، فيستضيفون شخصيات من مجالس المحافظات والمجالس المحلية الاستشارية وقيادات دينية وحزبية)).

وأشار إلى أن «ما يميز هذه الأمسيات أنها بعيدة عن التحزب والطائفية والعنصرية، وهدفها الأول والأخير وحدة الشعب العراقي والعراق، وتستمر إلى ساعات متأخرة من الليل أحيانا إذا كانت المحاضرة تستوجب التعقيب والملاحظات والإضافات والاعتراضات، خصوصا إذا كانت تاريخية أو عقائدية)).

وأوضح شريف أن «أمسيات الشعر والقصة غالبا ما تنتهي بانتهاء الشعراء من إلقاء إبداعاتهم التي غالبا ما تنحصر في قصائد الشعر العمودي الذي اشتهرت به مدينة النجف)).

وأضاف الشاعر وهاب شريف أن ((هناك أشياء جميلة بدأت تظهر في شهر رمضان في السنوات الأخيرة، وهي أن المغتربين العراقيين خارج البلاد، غالبا ما يفاجئون هذه الأمسيات الرمضانية بحضورهم، حيث يأتون إلى أهلهم وذويهم لقضاء شهر رمضان والعيد بين أهاليهم ومحبيهم، وتبدأ الحكايات الجميلة، وبعض الذكريات مع أحاديث لا تقل جمالا عن غربتهم والبلدان التي يمكثون فيها، فيكون الحديث عن تجربة العراق في بلدان الغربة)).

وقد عرف عن النجفيات إجادتهن لأكلات ينفردن بها عن مدن العراق، ومن أبرزها طبخة الفسنجون، وتقول أم محمد إن «هنالك الكثير من الطبخات النجفية، ومنها طبخة الفسنجون، وهي عبارة عن وجبة طعام من الدجاج المحشو أو المطبوخ مع المرق والمحشو بالفستق وحب الرمان)).

وتضيف أم محمد: ((أما الطبخة الأخرى فهي طبخة الطرشانة، وهي عبارة عن مشمش مجفف جدا وتضاف إليه بعض المواد الأخرى)).

ويقول حسن سعدون إن «مدينة النجف تشتهر بصناعة الحلويات، ومنها دهينة أبو علي التي أصبحت ماركة لدى الكثير من المحال في المدينة القديمة في النجف، حتى أن بعض المحال فتحت في أغلب المحافظات العراقية لبيعها، ويكثر الطلب عليها في شهر رمضان». مضيفا: «أيضا توجد حلويات السمسمية والزلابية وزنود الست، وحلاوة الحليب، والساهون النجفي)).

وأضاف سعدون: «النجف ليست مشهورة بصناعة الحلويات فقط، فلدينا أيضا الطرشي النجفي الذي يصبح من المواد المفضلة في شهر رمضان، ليس في المحافظة فحسب، بل في كل العراق. ويصنع على أنواع، منه المدبس، وحامض حلو، المطعم بحب الرمان)).

السماوة في رمضان .. عادات وتقاليد من عشرات السنين

اللحظات تهافتت فأنتجت ذكرى .. لم يعد للذين ركضت بهم السنين عبر محطات الآمال الضائعة والحروب المستهترة غير فسحة من ذاكرة متعبة تعتاش على الجميل من الأيام ؛ على قلتها ... وإن أنت التقيت أحداً من الذين سقتهم الأعوام مُرّها واستعانوا بالصبر على التجاوز والعيش برضا كمتوالية إنسانية تتوخى البقاء وتهدف لاقتناص غيمة أمل شاردة لن تجد غير حسرة منفلتة لماض تعيس ؛ ولكن توازيها ابتسامة عريضة لمستقبل حتماً جميل ؛ تريد بهاءه لمن يأتي بعدها إذ هي تتصرف بنكران ذات وأمنية حالم.

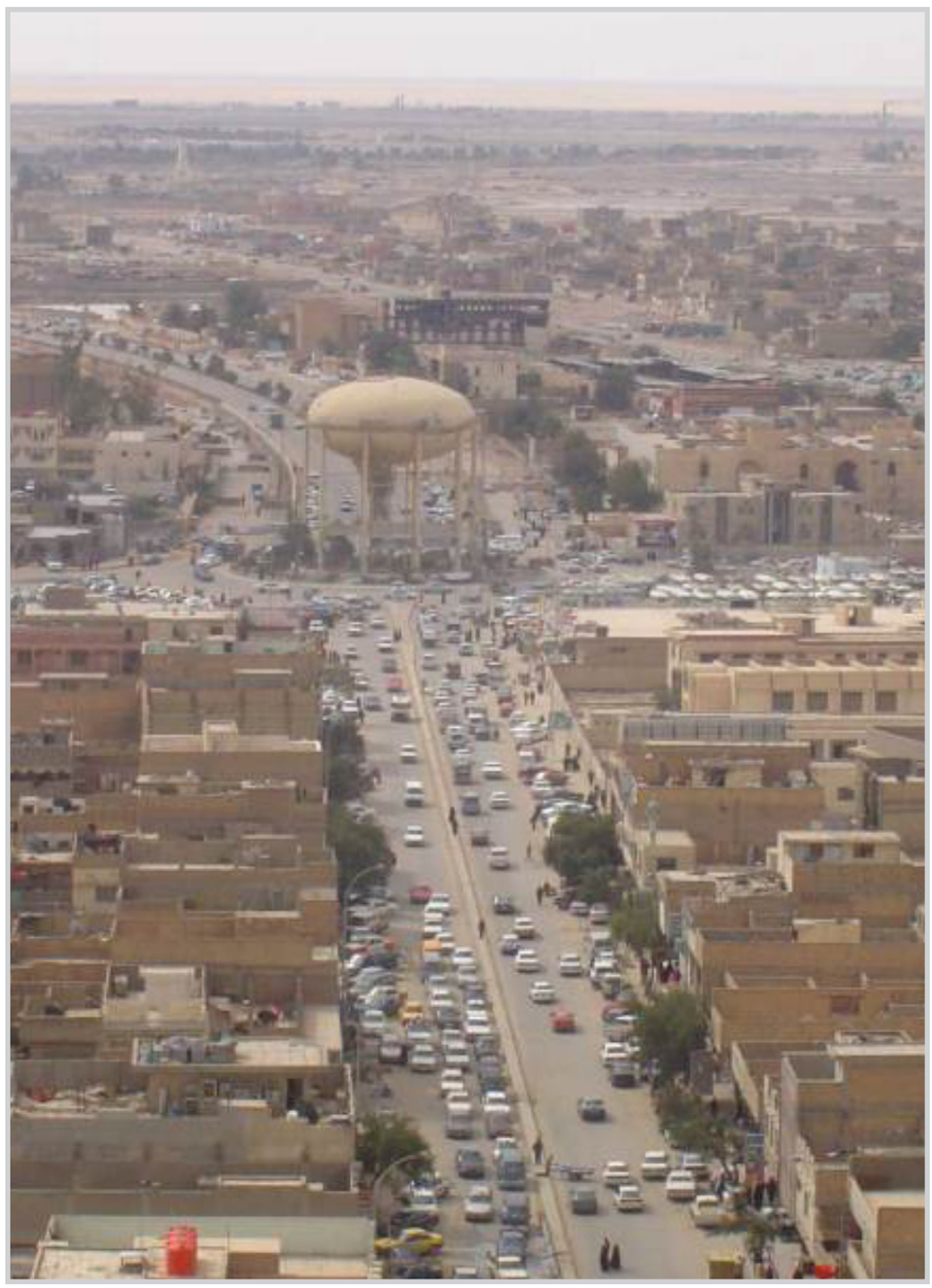

السماوة/ وكالة نينا

رمضان أحد محطات ذاكرتهم يعودون إليها ليستعيدوا أجواء النهارات وأشذاء الليالي .. وإذا كانت النهارات ساعات عمل مرهقة يثقل فيها خواء المعدة نشاط الجسد فإنَّ الليليات تستحيل نهارات من نوع خاص .. ليليات تتناثر في فضاءاتها الألفة ، ويعودُ الود ، وتأخذ الممارسات الحميمية للتجمعات الإنسانية في أماكن اللقاءات الكثيرة من مثل المقاهي ، قارعة الطرق ومسطحات الأرصفة ؛ كذلك جلسات غرف الاستقبال " البرانيات " وألعاباً تتساجل بين لعبة " المحيبس " و" الدومينو" و" الطاولي " والتسبيح بمسبحات متفاوتة المنشأ لعل أفضلها وأثمنها والمثيرة للتباهي واقصد بها مسبحة الـ (يسر) والتي تتباهى على الأنواع الأخرى من مثل (باي زهر) و(السندلوس) و (البخور) و (الصدف) و(الفيروزي) . وكان رمضان حلقة الوصل والأثير لدى الجميع : الصائمون وغير الصائمين من رجال ونساء وشباب وصبية . تضج الأضواء في واجهات المحلات وتزدحم المقاهي ؛ وتعج الشوارع بخطى تراها افتقدَتها في أوقات الظهاري وأوقات العصر حيث ينسحب الصائمون تارة بخواء أجساد أنهكها الجوع بعد عمل لا يكل وتارة بهمة مَن أبدى شجاعة في تحمل وطأة الصيام .

المقهى قاموس الجلسات وصفحاتها

كانت المقاهي هي السمة الظاهرة التي تشير إلى الاستئناس في ليالي رمضان ؛ فثمة الكثير من هذه المقاهي تتوزع في السوق الرئيس والأسواق الفرعية والشوارع الرئيسة من المدينة ؛ دثرَ الزمان أغلبها وانمحت الآن من الوجود اللهم إلا في ذاكرتنا نحن الذين أصبحنا شيوخاً بعد أن كنّا نؤمها شباباً نعج بالطاقة والحبور رغم الفقر.

كانت هناك مقهى مطشر جبر على الكورنيش وأصبحت الآن عيناً على اثر فقد شيدت مكانها المحال والشقق السكنية بطوابقها الثلاثة ؛ وليس قريباً منها مقهى جاسم وهي مقهى كانت تقارع مقهى عبد الله حطحوط الكائنة في شارع مصيوي وهما مقهيان اعتاد المعلمون ارتيادهما وكثيراً ما عاتب عبد الله بعض من رواده الذين انفضوا عنه وصاروا من رواد جاسم . وهكذا كان جاسم يفعل .. وفي السوق المسقف كانت هناك مقهى عبد جساب و تصلها بعد ان تلج سوقاً فرعية (قيصرية آل حنوش) وهي تغذي اصحاب وزبائن دكاكين السوق المسقف وكان عبد جساب يحمل صينة احتوت (قوري) وأقداحاً ويدور ماراً على أصحاب الدكاكين تماماً كما يفعل الآن أولاد حسين القهوجي في مقهى سوق النجارين . وأيضا ؛ أيضاً كانت هناك مقهى حاج حمود في (عجد الخبازات كما يطلق عليه) حيث تتخذ النساء الخبازات العاملات الخبز في بيوتهن مجلساً في مدخل العجد) وهي تقابل مطعم أحمد أبو الكبّة الذي كان يرتاده أبناء المدينة وريفيّوها حيث تقدم الكبّة المسلوقة على خبز مقطع ومداف بالسائل الساخن المستخلص من تسخين اللحم الذي يحشو هذه النوع من الغذاء الدسم والشهي واللذيذ .

ومن خرج من مطعم أحمد لا بدَّ أن يدخل مقهى حاج حمود لتناول شاياً ساخناً يقتل بقايا الدسومة العالقة في الفم ويمنح اللسان ذائقة الحلاوة ... وكان رمضان حاضراً وأثيراً في المقاهي الأخرى . فمقهى كريم فرج التي تدخلها بعد أن تجتاز سوق الحدادين بقيت صامدة حتى اليوم ولو أن مقاعدها (القنفات) ومناضدها جاء عليها البلى فبدت متعبة تحكي زمناً كان يمنحها الشباب والرونق والبهاء فسرق منها كل شيء .. وحتى روادها لم يبق منهم إلا الشيوخ وكأنهم يرددون قول أبي العلاء المعري :

(تحطمنا الأيامُ حتى كأننا

زجاجٌ لا يُعاد له سبكُ) ...

ولا يستثنى سوق القصابين من احتوائه على مقهى لأنَّ في وسطه اتخذت مقهى حميد حمزة وجوداً لها تستقبل الداخلين السوق وترفد القصابين برغبة شهيتهم إلى شاي ساخن تعقيبه سيجارة لها لذاذة بطعم السكر المذاب في الأقداح (أين مقهى حميد حمزة الآن .. يا زمن ؟!) .. وإذا كانت مقهى علي عمّار لشرب الشاي والارجيلة بعد صيام قاهر قد اندثرت ؛ وإذا كانت مقهى حمد محسن قد استحالت محلاً لبيع " الشربت " فانَّ مقهى السيد ياسر ما زالت الوحيدة التي تتعافى وتصمد أمام رياح الزمن العاتية بفضل أولاده الذين اتخذوا من المقهى عملاً لهم وجعلوه مصدر رزقهم جميعاً فهم على تواصل دائم في تحديثها متى وجددوها تستحق التحديث .

وهذا اليوم يرتادها الشباب لشرب النارگيلة بل ويتخذون من دكات المحلات التي تغلق أبوابها ليلاً مكاناً للجلوس والتمتع بأنفاس أركيلة حرموا منها طوال ساعات الصيام ... قد يبدو كلامنا هذا غير منصف لأننا لم نأتي على مقاهي الصوب الصغير من المدية ؛ لكننا نقول أن لذلك حديثاً آخرَ.

البرّانيات .. مقاه اجتماعية ..حضور خاص

وإذا كانت المقاهي تتولّى مهمة جمع الصائمين فإنَّ مجالس البيوت (البرّانيات) كان لها الدور الفاعل أيضاً في اللقاءات والتحاور والتداول الحديثي عن مستجدات الساعة والإحداث التي ينبغي أن تصل إلى مسامع الجميع ؛ ناهيك عن الفعاليات الجميلة التي تقدح الذاكرة وتعيد لها بريقها عبر المطارحات الشعرية والسجالات سواء في الشعر الفصيح أو الشعبي . ولعلَّ برانية الحاج رضا المطوّف في الحي الشرقي هي الأثقف رواداً . فقد عُرف عن الحاج رضا مُحدثاً قديراً ولبقاً ، يمتاز بسعة الصدر في اللقاءات والمحاورات التي تصل حدَّ النزاع ، وكان يمتلك مكتبة تملأ جدران برّانيته فتعطي انطباعاً بهيبة المكان وثقافة صحبه وزائريه ... وكانت ثمة لقاءات رمضانية في كل خميس في " برانية " الشيخ مهدي السماوي حيث تجري المطارحات الشعرية وقراءة الجديد من الأشعار التي جادت بها قرائح الشعراء وعادة ما تتشح هذه الأشعار برداء الدين . وفي أواخر أيام رمضان تنتقل اللقاءات والسجالات إلى " برانية " الشيخ عبد الحميد السماوي فتكون أوسع ويزداد عدد المشاركين والحضور .

وفي الحي الغربي كانت الكثير من المجالس تجمعها (البرانيات) فهناك مجلس الرباط ومجلس الشيخ مهدي السماوي ومجلس محمد غريب ومجلس الحاج علي أبو مكينة ومجلس الحذاف ومجالس أخرى يجري فيها الحديث عن المتداول من اليومي؛ وقد يتحدث فيها أصحاب الحكايات الطويلة التي تحكي الشجاعة والفروسية والصبر على الشدائد فكانت هناك حكايات (ابو زيد الهلالي) و(أبو ليلة المهلهل) وهناك مَن يشارك في الحديث عن الحرب العالمية الأولى والثانية وهو يستلها من قراءاته للكتب التي تناولت هذين الحربين بإسهاب. وفي الصوب الصغير فكان جامع أهل السنة وكان عادة ما يرتادونه المصلين ليلاً لأداء صلاة التراويح ويتحول بعد ذلك المكان إلى مجلس .

ويكاد هذا المجلس ان يكون رسمياً حيث أن المجتمعين فيه أغلبهم من موظفي الدولي وهم غرباء من غير أهل المدينة في حين يشاركهم بعض من وهاء المدينة لإظهار الألفة والتواد.

وعادة ما توزع في أثناء الجلسات والأحاديث والمطارحات الشعرية الحلوى وهي من نوعي (الزلابيا) و(البقلاوة) تأتي محمولة في (صينية) يحملها احدهم ويدور بها بين الجلاس .

الإفطار .. ما قبله ؛ والذي يليه

اعتاد السماويون كتقليد لا يختلف عمّا في مدن العراق الأخرى أن يمارسوا فعل التسوق ظهراً وتزداد حركة التسوق تدريجياً مع اقتراب وقت العصر حيث تدب الحركة في السوق لا للعمل بل لغلق المحلات والتوجه مبكراً إلى البيوت لأخذ قسط من الراحة بعد نهار مضنٍ من العمل الدؤوب على عكس ما هو معروف في البلدان الإسلامية حيث يدخل المسلمون في سبات وتقل حركتهم في النهار وخصوصاً الصباح بينما يوظفون ساعات الظهر للتسوق والعودة إلى البيوت . وصفة نشاط أهل مدن العراق واستمرارهم في العمل حتى في شهر رمضان هي ميزة تميزهم عن مسلمي البلدان الأخرى .

ولقد اعتاد بائعو الخضر بأنواعها من الكرفس والرشاد والكراث والفجل في خمسينيات القرن الماضي وقبلها التجول في الأزقة قبل الفطور لبيع خضرهم ولتزويد مَن لم يخرج للشراء مثلما هم في همّة لبيع خضارهم التي ستتلف إن هي بقيت لليوم التالي ومنْ هنا يجهدون لبيعها حتى بأرخص الاثمان . وكان البائع يردد عبارته الشهيرة (جاووش الفطور ، يا فجل) . وفي الإفطار يبدأ الصائمون بشرب نقوع قمر الدين ليقتلوا الظمأ لما تحتويه هذه المادة من سكريات وحموضة مطلوبة تنتعش لها المعدة التي أرهقها الظمأ والجوع ؛ ثم يكرعون الحساء (الشوربة) المعمولة من العدس والشعرية . وعادةً ما تكون بلونين : الشوربة الحمراء اللون حيث يضاف لها معجون الطماطة او عصارة الطماطة الطازجة ، والشوربة الصفراء الخالية من عصير الطماطة والتي يستعاض بخلط مادة الفلفل لإعطائها اللون الأصفر المحبب .

وبعدها يبدأ تناول المواد التي يدخل في عملها اللحم كالكباب أو كباب (المعروك) الذي عادة ما يكون من نصيب موائد الفقراء الرمضانية حيث يُعمَل من خليط العجين والخضروات والشحوم ، أو الدولمة المعمولة من ورق العنب أو السلق وحشوتها التي هي خليط من الرز واللحم والبصل وبعض من العوائل الميسورة تضيف لها اللوز . هذا إضافة إلى أنواع (المرق) الذي لا تخلو المائدة العراقية منه أبداً كمرق الباميا والباذنجان والشجر (الكوسة) والسبانخ وغيرها .

وتكثر عادة أكل الحلوى في رمضان فيتجه أصحاب معامل الحلويات إلى عمل النوعين الشهيرين من الحلوى واللذين اختص وجودهما في هذا الشهر وأقصد بهما (الزلابية) و(البقلاوة) و (الكاهي) حيث يتجه الصائمون لتناولهما لتعويض النقص الحاصل في السعرات الحرارية التي فقدوها طيلة ساعات الصيام .

أمّا الفقراء من الناس غير القادرين على الشراء فكانوا يتناولون نوعاً آخر من أنواع الحلوى ويسميها الناس (بقلاوة الفكر) هذا طبعاً قبل خمس عقود من الآن ، وعادة ما تعملها الأسر داخل البيوت وهي خليط من فُتات الخبز المعجون بالسمن الحيواني يضاف فوقه الدبس السائل فيكون وجبة تسر لها النفوس .

بعدها ينهض الصائمون وقد ارتووا وشبعوا فتبدأ رحلة الخروج إمّا إلى الجوامع لأداء بعض الصلوات ، ثم التوجّه إلى المجالس (وهذا ما يخص الشيوخ الكبار) ، أوالى التجوال في الشوارع والأسواق وتناول الكرزات من حب بانواعه وحمص وفستق ولوز . واخيراً إلى المقاهي للعب لعبة (المحيبس) الجماعية حيث الشباب المفعم بالحركة واثبات الذات يتبارون ليفوزوا في النهاية بصينية البقلاوة والزلابيا التي تراهنوا عليها كتكريم أصولي للفائزين .. لكنه فوز يعم الجميع وينتهي بأحاديث عن بطولات فردية صنعها هذا المتباري لإغواء الباحث عن المحبس الخبيء أو الإخفاق الذي ارتكبه ذاك فجعل المحبس يسقط من يده جراء الخوف وعدم مسك الزمام بصورة صحيحة .

وماذا عن اليوم ؟؟؟

اليوم تغير الزمان .. صار للتكنولوجيا هيمنتها ؛ ولمتطلبات الحضارة سطوتها .

الرجال و الكهلة والشيوخ صاروا يصرفون الساعات .. ساعات ما بعد الإفطار مشدودين إلى الشاشات التي تنقل لهم فحوى العالم في هياجه وجنونه / تقادمه ورؤاه / تطوراته وتغيراته / عدوه الحثيث باتجاه اوقيانوسات الاختراعات المذهلة .

الشباب يتحيّنون الوقت للاندفاع إلى مقاهي الانترنيت ليلجوا من بوابات العالم المتمدن ولينهلوا لردم الهوّة التي اكتشفوها كم هي واسعة تفصلهم عن العالم المتحضر ..

انتهت المجالس .. وماتت المطارحات الشعرية .. ذهب المحيبس ولم يبق إلا ذكرى في ذاكرة الواقفين في محطة الانتظار ليقلهم قطار العمر المتبقي إلى محطات الرحيل الأخيرة .. إلى اوقيوناسات العدم.